المبحث الثاني

****

السيرة الذاتية الغاية والمقصد

obeikandl.com

obeikandl.com

– ١ –

مر بنا أن كاتب السيرة ليس شخصاً خاملاً مجهول الذكر، بل شخصية ترك بصمة فى مجال من مجالات الحياة ، ولا نبالغ إذا قلنا إنهم - جميعاً – لم يصلوا ما وصلوا إليه إلا بعد جهد ومشقة ومعاناة وأنهم واجهوا كثيراً من العقبات والصعاب فى طريق نضالهم من أجل إثبات الذات ، ولذا كانت كتابة سيرهم هاجساً مؤرقاً وباعثاً قوياً فى أعماقهم ، كما يقول د . إحسان عباس " كل سيرة فإنها هى تجربة ذاتية لفرد من الأفراد فإذا بلغت هذه التجربة دور النضج ، وأصبحت فى نفس صاحبها نوعاً من القلق الفنى فإنه لا بد أن القلق يكتبها ، والناس مهما يطل عليهم الأبد وتختلف أحوالهم هم أحد رجلين رجل وصل حيث يؤمل وانتصر على الحياة وصعابها .. ورجل كافح حتى جرحته الأشواك وأدركه الإخفاق " (١) . وكلاهما يريد أن يخبرنا بما مر به من مصاعب ومتاعب ، لدافع نفسى (هو التنفيس عما يعتمل فى أعماقه من مشاعر دفينة هصرته فى حياته) ليجد عند الملتقى العزاء والسلوى ، ويخبر المتلقى – الذى يألفه – بما يبثه من شجون وآلام عن صفحات تجربته المريره ، بكل العقبات والصعاب التى واجهته ليقدر قيمة جهده ، ويزداد مكانة فى قلبه لأنه داس على الأشواك وهشمها ، ويجد المتلقى متعة جمالية بما يثيره هذا العمل فى نفسه فى تشكيله الفنى الذى عكس من خلاله مشوار حياته المرير .

نخلص من هذا بأن كتابة السيرة – كأى عمل فى الحياة – نابع من دافع داخلى فى أعماق صاحبه ، أو قل دوافع عدة ، أولها إطلاع المتلقى على تجربته المؤلمة فى الحياة منفساً عن أشجانه وآلامه ، وليثبت للجميع قدرته على تجاوز الصعاب ، وأنه لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بالجهد والمشقة والعناء ، ناهيك عن حب الإنسان للحديث عن نفسه

١ - فن السيرة د . إحسان عباس ص١٠٢ .

خاصة اذا كان صاحب الحديث (أقصد كاتب السيرة هنا) قد وصل إلى مكانة من المجد والتقدير ، فيطربه ثناء الناس عليه ، حتى ولو كان فى صورة غير صريحة يلمسها صاحبها ويستشفها استشفافاً ألم يقل الشاعر القديم (حب الثناء طبيعة الإنسان) وإلى جانب هذا الدافع (العام) تنفيس صاحبها عن همومه وآلامه ومشاركة الآخرين له فى هذه الهموم ، وازدياد مكانته فى نفوسهم بعد تيقنهم من عظمة نضال صاحب السيرة حتى وصل إلى ما وصل إليه ، هناك دوافع أخرى ، لكل سيرة دافعها الخاص بها ، الذى يأتى نتيجة لظروف حياة صاحبها ، والعوامل التى أحاطت به فكتب سيرته .

– ٢ –

بعض كتاب السيرة أشاروا فى مقدمة سيرهم إلى الدافع الذى دفعهم لكتابة سيرهم ، وبعضهم الآخر – خاصة الذين صاغوا سيرهم فى قالب روائى – لم يشيروا الى الدافع لكتابة سيرهم ، فنستشفه استشفافاً ، ونستنبطه من النص ، وقد نادى د . يحيى عبد الدايم بإلزام الكاتب بذكر غايته من كتابة سيرته بحجة أن " الكشف عن الغاية فى حالة القالب الروائى ، هو الحد المميز بين الرواية الفنية الخالصة وبين الترجمة الذاتية المتبنية للصياغة الفنية الروائية " (١)

ولا ضير أن يشير الكاتب إلى غايته من كتابة سيرته ، وفى الوقت نفسه أظن أن عدم ذكره الغاية ليس عيباً يؤخذ على الكاتب ، والشيء الذى نستنبطه استنباطاً يكون له من المذاق عن الشيء الذى يأتى سهلاً وجاهزاً – خاصة فى السير ذات القالب الروائى لأنه عمل إبداعى يبعد عن المباشرة والتقريرية .

١ - الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيي عبد الدايم ص١٦.

ومن الذين كشفوا عن غاياتهم فى كتابة سيرهم بغرض تصوير حياتهم لإظهار المشاق التى واجهوها ليستفيد منها الآخرون أحمد أمين وعبد الرحمن الرافعى وحسين فوزى وسلامة موسى .

فأحمد امين يحلل لكتابة سيرة حياته بقوله " علها تصور جانباً من جوانب جيلنا وتصنف نمطاً من أنماط حياتنا ، لعلها تفيد قارئاً ، وتعين مؤرخاً " (١) .

وذكر الرافعى أنه كتب مذكراته " لمن أراد أن يتفهم العصر الذى عشت فيه وشاهدت حوادثه وحقائقه " (٢) ، وحدد حسين فوزى الغاية من كتابة سيرة حياته بقوله " فليس الهدف من هذه الصحائف تاريخ فرد بعينه ، وإنما تصوير الظروف التى نشأ فيها جيلنا كله " (٣) ، وتحدث سلامة موسى بأنفة وكبرياء عن الدافع لكتابة سيرته فقال" هى سيرتى أبسطها لقراء الجيل حتى يعرفوا ما لم يروه ، أو يختبروه من الحوادث التى مرت بنا بين ١٨٩٥ : ١٩٤٧ " ، ويقول فى موضع آخر موبخاً من اعترضه قائلاً " فأنا أكتب كى أسوى حسابي مع التاريخ " (٤) ، ولذا ركز فى سيرته على إبراز العوامل التى أسهمت فى تكوين شخصيته ، خاصة العامل الثقافى المكتسب من الثقافة الغربية الجديدة ، التى أمدته بروابط فكرية جديدة فى العلم والأدب والاجتماع ، وجاهر بعلمانيته حتى صار منبوذاً وغريباً عن مجتمعه .

وأحمد هيكل إن لم يشر صراحة – إلى مقصدية سيرته ، ولكنه فى الإهداء يوحى بأنه يعرضها لتكون قدوة للشباب الطامح للاقتداء بها ، لأنها تصور حياة رجل عرك الحياة وأجهد نفسه كثيراً حتى وصل إلى هذه المكانة يقول فى الإهداء :

---

١ - حياتى أحمد أمين ص٦ ، ٧ .
٢ - مذكرات عبد الرحمن الرافعى ط دار الهلال عام ١٩٥٢ ص٣ .
٣ - سندباد فى رحلة الحياة : حسين فوزى ط دار المعارف سلسلة أقرأ رقم ٣٠٦ عام ١٩٦٨ ص٩٢ .
٤ - تربية سلامة موسى ص ٥ ، ٣ .

إلى الأجيال الجديدة المأمولة من أبناء مصر الحبيبة .

إلى الذين تمتلئ قلوبهم بالآمال الكبار لهم ولوطنهم .

إلى الذين تعترض طريقهم عوائق ليست من صنعهم .

إلى الذين لا يقنعون بالهين الميسور من غايتهم .

إلى الذين يدفعهم الإيمان والصبر والكفاح فى تحقيق أحلامهم . (١)

وميخائيل نعيمة يصرح بأنه يكتب سيرته من أجل أن يسيح بالقارئ سياحة قصيرة أو طويلة فى الدنيا واستجابة لقرائه الذين " يرون أن يعرفوا التربية التى نبتت فيها هذه الأفكار والأجواء التى فيها تبلورت ، والأسس التى تقوم عليها والعقبات التى واجهتها وذللتها " (٢)

ويذكر - أيضاً – أنه فى استعادة لذكرياته " سأكون كمن يعيش عمره مرتين ويقينى أن ذلك سيساعد على تسوية حساباتى مع نفسى ، ومع الناس ، ومع الكائنات التى كان لها فى حياتى نصيب " (٣)

وتوفيق الحكيم فى رسائله (الحقيقة) التى أرسلها إلى صديقه الفرنسى أندريه يعكس لنا كفاحه المضنى فى تثقيف نفسه ، سواء فى مصر أو فى فرنسا ، يقول " فلقد رضيت اليوم أن أنشر هذه الرسائل تذكاراً للصديقين أندريه وجرمين . . وإيثاراً لقرائى على نفسى ، قرائى الخلصاء الذين قد يعنيهم أن يطلعوا على صفحة من حياتى " (٤)

وفى سجن العمر يشير إلى الغاية من سرده لقصة حياته بقوله " هذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ حياة ، إنها تعليل وتفسير لحياة . . إنى أرفع فيها الغطاء عن

١ - سنوات وذكريات سيرة ذاتية د . أحمد هيكل ص٥ .
٢ - سبعون المرحلة الأولى ط دار حنادر بيروت ص٨ .
٣ - م٠ نفسه ص ٨ .
٤ - زهرة العمر توفيق الحكيم – ط الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩٨ ص١٥ .

جهازى الآدمى ، لأفحص تركيب ذلك المحرك الذى نسميه الطبيعة أو الطبع . . هذا المتحكم فى قدرتى الموجه لمصيرى من أى شيئ صنع ؟ من أى الأجزاء شكل وركب ؟ " (١) إنه يريد أن يكشف عن عوامل الوراثة والتربية وأثرها فى تشكيله فكرياً وروحياً ووجدانياً هذه الأشكال لا يتدخل فيها الإنسان ، ولكن ما فى استطاعة المرء عمله وتتدخل فيه إرادته هذا ما يمتلكه الإنسان فى خريطة حياته . . وكان له ما قصد فى كتابه فوقف على ما تركه الطبع والوراثة ، وما أمتلكه بمحض إرادته . . فى تثقيفه وكتاباته واختياره المسرح فناً لأنه يتفق مع طبعه وميوله .

وعبد الله الطوخى فى (سنين الحب والسجن) الجزء الثالث لسيرته (عينان على الطريق)يعترف بالغاية من كتابة سيرته ، بعد مرحلة السجن من عام ١٩٥٥:١٩٥٣ م والتى كانت ثمناً لانحرافاته وجريه وراء التنظيمات السرية المريضة ، التى انكشفت حقيقتها فى التمويه والتدليس والجرى وراء مصالح قادتها ، وتضليل أعضائها يقول " إنما الآن ، وبحكم أن الموضوع منطلق أساساً من كونه سيرة ذاتية يجرى صاحبها وراء اكتشاف العناصر التى شكلت قدره وتكوينه ، والعبر والدروس التى خرج بها من شتى تجاربه السعيدة والأليمة ، والتى حددت فيما بعد مقصده النهائى لمعنى الحرية قضية عمره ، التى عاش طوال حياته يجرى ورائها ، وكانت هى دائماً وأبداً . مقياس سر سعادته وتعاسته"(٢) . إنه يكتب سيرته باحثاً عن معنى وقيمة الحرية ، التى لم يشعر بقيمتها إلا عندما دخل السجن مردداً مقولة الفيلسوف الألمانى هيجل " إن تاريخ الإنسان الحقيقى هو تاريخ وعيه بحريته " (٣)

---

١ - حياتى توفيق الحكيم ط دار الكتاب اللبناني ط١ عام ١٩٧٤ ص ٥ وكان قد طبع هذا الكتاب من قبل تحت عنوان (سجن العمر) .

٢ - سنين الحب والسجن عبد الله الطوخى (قصة حياة) كتاب الهلال يناير ١٩٩٥ ص ٥٢٩ ص ١١٢

٣ - م٠ نفسه ص ٧٩ .

ويقول فى موضع آخر " إننى أكتب الآن بروح الاعتراف المصحوب بالرغبة العميقة فى التطهر الكامل من كل ذنوب وحماقات التطرف بالجهل والتعصب وروح الادعاء المرتبطة بالانقياد الأعمى . . إننى أحاول التغطية على موقفى الذى اتخذته بعد ذلك وبحسم ، هجر عالم التنظيمات والتشبث بحريتى " (١)

ولا غرو أن يعترف بفضل السجن ، لأنه أعطاه فرصة للوقوف مع نفسه ، محاسباً وممحصاً لقراراتها ، ولذا فكر أن يطلق على أحد عناوين الجزء الثالث (سنين الحب والسجن) من هذه السيرة (صاحب الفضيلة السجن) فقد وجد فيه أن كل شيئ قد تعرى ، وظهر على حقيقته ، حيث الانقسام والتآمر بين التنظيمات السرية المعادية لثورة يوليو ، وإلزام الأعضاء أشياء فوق طاقتها ، فقد ألزموه أن يأوى أخاً له ، وإذا بهذا الأخ كان قد سرق بنكاً ، وهيأوه بعد ذلك أن يكون عضواً شيوعياً ، ولولا هروب هذا الرجل أثناء مجيء الشرطة للقبض عليه ، لكان لحياة عبد الله الطوخى شأن آخر فى عالم السجون .

ويحلل لهذ التنظيمات المختلفة – رغم أنها كلها شيوعية – فى الطريقة والغاية والمقصد (تنظيم حدتو – تنظيم النجم الأحمر – تنظيم النواة – وتنظيم آخر عنوانه "ط.ش" وآخر عنوانه "د . ش" ومنظمة مشمش ... الخ) (٢) .

وكل تنظيم من هذه التنظيمات حريص على عزل أعضائه بعضهم عن بعض ، وفى الوقت نفسه عزلهم عن معاملة التنظيمات الأخرى ، وذلك خوفاً من تسرب المعلومات البوليسية ، وتجنباً لتفاقم تلك الصراعات الأيدلوجية التى كانت أكثر شارها مرارة ، فقد ضللوا هؤلاء " فمرة يسيرون بنا لنقف للثورة فى أيامها الأولى . . ومرة أخرى يهبط علينا

---

١ - راجع م٠ نفسه ص ١١٧ : ١١٨ .
٢ - م٠ نفسه ص ١١٠ .

التحليل السياسى القائل بأنها ديكتاتورية عسكرية قاسية . . تمهد للاستعمار الأمريكي الجديد . . ومرة ثالثة نبلغ بحدوث انقسام خطير فى التنظيم . . " (١)

ويعترف فى النهاية بأن معركته ليست مع الحكومة التى حبسته ، ولكن مع هؤلاء الذين ضللوه وعبثوا به وبغيره لتكوين خلاصة قراره " هو أن يكون قرارى وموقفى فى أى موضوع ،أو أى مشكلة نابعاً من فكرى وقناعتى الذاتية الشخصية ، وليس ترديدًا لرأى الآخرين "(٢) هذا هو الدرس الذى استفاده من حياته ، وهوالدافع الذى صاغ من أجله سيرته ، والتى يريد من خلالها أن يستفيد القارئ من خطئه هو أن يكون قراره نابعاً من نفسه لا من رأى غيره . . الخ

-٣-

لم يشر كاتب من الكتاب الذين صاغوا سيرهم فى القالب الروائى إلى مقصده وغايته ، وهذا أمر بديهى ، لأن فى هذا القالب نتعامل مع سيرة روائية (لا اعترافات أو مذكرات أو مقالات تكون فيما بينها رؤية متكاملة لحياة صاحبها ومسيرته واتجاهاته الفكرية والروحية . . فى الحياة) لنستشف فى هذا العمل الروائى سمات صاحبها ومقصديته التى لم يصرح بها ، بل نستشفها استشفافاً ونلمحها وراء الأحداث والمواقف.

وقد نجد فى حياة صاحب السيرة ما يشير إلى مقصديته من عمله الأدبي ، فالأيام – مثلاً – كتبها طه حسين بعد نشره لكتاب (الشعر الجاهلى) ولذا لم يكن من قبيل المصادفة أن تنشر فصول (الأيام) متتابعة فى مجلة الهلال عام ١٩٢٦ ، وكأنها استجابة نفسية شرطية للمحنة التى مربها مؤلفها بسبب رأيه فى انتحال الشعر الجاهلى ، وهى المحنه التى قدم من أجلها المفكر إلى النيابة (١)

---

١ - م٠ نفسه ص ١٠٦ .
٢ - م٠ نفسه ص ٢٣٦ .
١ - راجع : طه حسين كما يعرفه كتاب عصره . عبد الحميد يونس (جماعة من الكتاب) دار الهلال ١٩٦٣ ص٦٣ .

وقد تفهمت النيابة حسن نية صاحبها ، وأفرج عنه وعن الكتاب ، وأعيد طباعته ثم أخذ ينشر الجزء الأول ليبرز لنا تاريخ نضاله فى معترك الحياة حتى نال أعلى درجة علمية رغم ما ابتلى به من محن ، وما وقف فى وجهه من عقبات – ليقول لخصومه وبطريقة غير مباشرة هاأنذا طه حسين ، الذى انتصر على جهل مجتمعه الذى ورثه عاهة مستديمة تحول دون رؤية ما حوله ، والذى انتصر على الفقر والتخلف فى السلوك وفى طرائق التعليم – استطعت أن أتجاوز كل ذلك . . وأن أتى بالجديد والسبق فى عصرى . . وأن ماحدث كان زوبعة فى فنجان . . وسيكون طه حسين – وقد كان – علماً ورمزاً من رموز الفكر والأدب .

– ٤ –

وكل سيرة – إضافة إلى الغاية المشتركة بين جميع السير كما ذكرنا الإشادة بمسيرة حياة صاحبها فى معترك الحياة – كل سيرة لها غاية أخرى ، تنبع من حياة صاحبها والظروف الخاصة التى تحيط به ، ولذا تختلف مقصدية طه حسين فى سيرته ، عن حنا مينا ، عن فدوى طوفان عن محمد شكرى . . عن ميخائيل نعيمة . . الخ لاختلاف الظروف والواقع الاجتماعي المحيط بكل واحد منهم ، إضافة إلى اختلاف الأهواء والطباع والأمزجة بينهم . وبين الناس عامة ، ونقف على مقصدية بعض الكتاب فى سيرهم الروائية ، التى نستشفها استشفافاً عند طه حسين وميخائيل نعيمة وحنا مينا وفدوى طوفان وخليل حسن خليل وبنت الشاطئ .

٤-١ أراد طه حسين فى الأيام أن يرد على خصومه بطريقة غير مباشرة ، هؤلاء الذين نالوا منه لنشر كتابه (الشعر الجاهلى) ليثبت لهم قوة إرادته ونبوغه الفكرى والعقلى فى رحلة حياته الصعبة والشاقة . حتى وصل إلى هذه المكانة ، منتصراً على الثلاثية المدمرة (الفقر والجهل والمرض) فعرى مجتمعاً ينخر فى عظامه هذه الأمراض

ليكون حديثه ناقوس خطر ينبه المجتمع إلى علاج أمراضه وتجاوزها ، وقد عرض لنا طه حسين – كما ذكرنا – سيرته فى قالب روائى يقوم على التصوير واستبطان الذات ، لا السرد والتقرير ، ومن بداية الأيام يعرض بالجهل الذى خلف له عاهة عاتية لازمته طيلة حياته ، يقول عن أخته " تحمله بين ذراعيها وتعدو بع إلى حيث تنيمه على الأرض ، وتضع رأسه على فخذ أمه ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدة بعد أخرى ، وتقطر فيها سائلاً يؤذيه ولا يجدى عليه خيراً " (١)

لقد أملى عليهم الجهل أن يعالجوه عند حلاق وكانت الطامة الكبرى ، وهذا الجهل – فى العلاج – كان وراء موت أخته الصغيرة ، بعدما أفقده عينيه ، فقد شكت أخته من المرض ، وكان الإهمال من نصيبها ، وعدم اللجوء إلى الطبيب ، لتلقى حتفها يقول " يشكو الطفل ، وقلما تعنى به أمه – وأى طفل لا يشكو ، إنما هو يوم ليلة ثم يفيق ويبل ، فإن عنيت به أمه تزدرى الطبيب أو تجاهله ، وهى تعتمد على هذا العلم الاثم علم النساء وأشباه النساء ، وعلى هذا النحو فقد صبينا عينه ، أصابه الرمد فأهمل أياماً ، ثم دعى الحلاق فعالجه علاجاً ذهب بعينيه ، وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة ، ظلت فاترة محمومة يوماً ويوماً ، وهى ملقاة فى فراشها " (٢)

هذه البيئة المتخلفة مازالت تغط فى خرافاتها من إيمان بالأولياء الصالحين وسيطرة الفرق الصوفية بشعوذاتها ، وطقوسها الفارغة ، لتحمل الناس فوق طاقاتهم بزيارتهم ، المكلفة وتصرفاتهم المنحرفة ، وهذا ما سجله الكاتب عن التخلف والشعوذة فى زيارة أحد مشايخ هذه الفرق لأبيه وكانت زيارة الشيخ تستهلك كثيراً من القمح والثمن والعسل ، وما إلى ذلك ، وكانت تكلف صاحب البيت الافتراض لشراء ما لابد فيه من

١ - الايام طه حسين ج١ ص٥ .
٢ - م٠ نفسه ص ٩٧ : ٩٨ .

الضأن والمعز [1] ناهيك عن سلوكياتهم وتصرفاتهم غير المقبولة ، من تقديس لهذا الشيخ وصل هذا التقديس أنهم ينتظرون بعد وضوئه ليأخذوا الماء الذى توضأ به ويتوضأون به وترديدهم الأناشيد فى صورة هلامية ، ونهمهم وجشعهم فى الأكل .

ومن صور الجهل عند رجال الدين كما يعرض الكاتب الفهم الخاطئ والتأويل الغريب لآيات القرآن وتعاليم الدين ، فأذكى الفقهاء يسأل عن معنى قوله " وخلقناكم أطوارا " فأجاب هادئاً مطمئناً : خلقناكم كالثيران لا تفعلون شيئاً ، ويفسر قوله تعالى "ومن الناس من يعبد الله على حرف . " فقال : على حرف دكه [2] ناهيك عن تصويره لسيدنا فى الكتاب بشراهته وكذبه . وغش العريف له والكذب عليه ، وعدم قيامه بالعمل على أحسن وجه . .إلخ .

لم تكن بيئة القرية وحدها هى البيئة التى يربض فيها الجهل ، بل بيئة العلم فى هذا العصر (بيئة الأزهر) حيث الاعتماد على المتون والحواشى وتقديس النص ، دون ترك مجال لإعمال العقل وعدم سماع الرأى الآخر للحوار والفهم ، وهذا ما صوره لنا فى الجزء الثانى من الأيام لبيئة الأزهر وشيوخه ، الذين كانوا لا يلتفتون له ، ولا لغيره وعندما كان يراجعهم كان الرد قاسياً مثل قول أحدهم : اسكت يا خاسر ، اسكت يا خنزير ، انصرف يا أعمى فتح الله عليك ، اسكت يا أعمى . . إن طول اللسان لم يثبت قط حقاً ولم يمح باطلاً [1] .

---

١ - م٠ نفسه ص ٧٧ .
٢ - راجع :م٠ نفسه ص ٧١ .
١ - الايام الجزء الثانى طه حسين ط دار المعارف عام ١٩٦٦ ص ١٤٠ ، ١٠١ :١٠٢ ، ص ١٥١ .

obeikandi.com

لقد ازدرى العلم عندما سمع الشيخ يقول : ولو قال لها أنت طلاق ، أو أنت ظلام أو أنت طلال ، او أنت طلاة ومع الطلاق ، ولا عبرة لتغيير اللفظ ، وهو يتغنى بذلك ، ويقطع غناءه بهذه الكلمة التى أعادها طول الدرس " فاهم يا أدع " (١)

لقد كانت نهايته مع شيوخ الأزهر نهاية مؤسيه . فلم يمنحوه العالمية الأزهرية ظلماً وتعنتاً ، وهذا دليل دامغ على جور وتعسف هذه المؤسسة

أما عن الفقر فى المجتمع فانعكس فى ملبسه ومأكله والسكن المتواضع الذى سكن فيه مع زملائه ، وأعترف بالفقر اعترافا مباشراً قاسياً ومروعاً فى حديثه إلى ابنته فى قوله " عرفته ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً ، يأخذ منه فى الصباح ويأخذ منه حظه فى المساء ، لا شاكياً ولا متبرماً .. ولو أخذت يا ابنتى من هذا اللون حظاً قليلاً فى يوم واحد . لأشفقت أمك ولقدمت إليك قدحاً من الماء المعدنى ولأنتظرت أن تدعو الطبيب " (٢) ، هذا الفقر الموجع جعله يعيش فى حرمان وقهر ، ولكن رغم ذلك كانت إرادته أقوي من جبروت هذا الحرمان، كان هدفه أن يصل إلى ما يريد وقد كان يقول " كان يعيش أبوك جاداً متبسماً للحياة والدروس ، محروماً لا يكاد يشعر بالحرمان حتى إذا انقضت السنة عاد إلى أبويه ، وأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل ؟ وكيف يعيش ؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب . . فيحدثهما بحياة كلها رغد ونعيم وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حب الكذب ، وإنما كان يرفق بهذين الشيخين " (٣)

لقد عرى طه حسين هذا المجتمع بثالوثه المدمر (الفقر والجهل والمرض) مدفوعاً بدافعين : الأول الإشادة بنفسه كرجل له إراده فولاذية تحطمت على إرادته كل هذه العقبات التى جاءت من جراء هذا الثالوث ، واستطاع أن يصنع حياته (العلمية)

---

١ - الايام طه حسين ج١ ص ١٤٢ .
٢ - م٠ نفسه ص ١٢١ .
٣ - م٠ نفسه ص ١٢٢ .

مستفيداً من بيئة أخرى (فرنسا) لا تستوطن فيها هذه الأمراض الاجتماعية ، أما العامل الثانى فيهدف إلى إبراز عيوب المجتمع لعلاج هذه العيوب ، وأعتقد أن طه حسين – نفسه– قد ساهم قدر إمكاناته فى العلاج فحين تولى وزارة المعارف قرر مجانية التعليم ودعا إلى أن يكون التعليم كالماء والهواء ، لابد أن يتوافر لكل أفراد الجتمع .

والعجب العجاب لما يراه الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم فى مقصدية طه حسين من سيرته " الدعوة الخفية إلى ضرورة التقاء الثقافتين فى فكر تلك البيئة " (١) ولست أدرى كيف استقى د يحيى هذا الرأى ، ومن أين استنبطه ، وما رؤيته هذه الا تمحل وتعنت وعدم موضوعية لعرضه لسيرة طه حسين وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، فعند د يحيى عبد الدايم طالما أن سيرة طه حسين لا تحذو حذو الوالد والولد لادموند جوس ، وسلاما ووداعا لجورج مور ، فهى رواية ولا نحسبها فى عداد السير . . وهنا الرأى مردود على صاحبه فليس الأدب استنساخاً لنموذج أدبى جاهز يسير الكاتب على حذوه ، بل لكل كاتب أسلوبه وطريقته فى العرض والمعالجة لموضوعه (أو سيرته هنا) .

٤-٢ تنفرد سيرة ميخائيل نعيمة (سبعون) فى مقصديتها عن بقية السير فى الأدب العربى ، فى الدافع الروحى الشفاف ، وهو بحث الكاتب عن ذاته وصلتها بالكون وصلة الكون بها ، والبحث عن الوجود ، ومصير هذا الوجود ، رغم انه – كما ذكرنا من قبل – قد أشار إلى دوافع كتابة سيرته ، كما يقول " أن يسيح القارئ سياحة قصيرة أو طويلة فى الدنيا " (١) " ويعرفنا التربة التى نبتت فيها هذه الأفكار والأجواء التى فيها تبلورت ، والأسس التى تقوم عليها ، والعقبات الى واجهتها

١ - الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣٩١ .
١ - سبعون المرحلة الأولى ميخائيل نعيمة ص ٨ .

وذللتها ، والتى واجهتها ولم تذللها بعد ، وإلى أى حد تساير حياتى أفكارى ، وإلى أى تغايرها "[١] .

ولكن الغاية الحقيقية التى تهدف إليها السيرة هى " تفسير نظرته الكونية ، وشرح فكرة الصوفى الذى ينبع من نظرته الكونية الشاملة ، إلى الحياة والأحياء ، والقائمة على فكرة وحدة الوجود ، وهى نظرة انتهى إليها بعد تطوف طويل فى شعاب المعرفة والحياة وقد بث تلك الفكرة الكونية فى ثنايا ترجمته الذاتية ، أقام عليها كل تأملاته ونظرته فيما وقع له من أحداث وتعليقات فى أطوار حياته المختلفة "[٢] ، وقد اتخذ من وقائع حياته وتجاربها وسيلة إلى التأمل والتفكير ، ولم يلجأ إلى السرد والتأريخ بقدر التصوير وتجسيد أفكاره متخذاً التأمل فى الكون أداته لاستبطان الذات ، يقول " اليقين بأن الحياة وحدة شاملة كل الشمول ، ومنظمة أبدع التنظيم ، ، وأن ما يصدر عنها لا يصدر ارتجالا و اعتباطا بل عن قصد وتصميم ، وأن الإنسان يسعد ويشقى على قدر ما ينسجم بتفكيره وسلوكه مع تلك الوحدة أو لا ينسجم ، وعلى قدر ما يفهم النظام أو يفهمه ، فيسايره أو يعانده "[٣] فهو - هنا - مؤمن بوحدة الوجود التى اهتدى إليها كثير من المتصوفة العرب (منهم ابن الفارض وابن عربي) متأثرين بأفكار أجنبية متعددة ، وهم يرون أن الكون بما فيه من أحياء وجماد كل واحد لا يتجزأ ،و " أن لكل إنسان . . ولكل ذرة رمل ، ولكل ما يؤلف الكون الأكبر شأنا ، فما انطلق فى الكون صوت إلا كان ترنيمة الحياة العامة ، ولا فكر إلا كان خليطاً فى نسيج الفكر الكونى "[١] ، حتى الذين ارتحلوا عن دنيانا فإنهم لم يموتوا ، فها

---

١ - م٠ نفسه ص ١٢ .
٢ - الترجمة الذاتية فى الادب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣٠٨ .
٣ - اسبعون المرحلة الأولى ميخائيل نعيمة ط دار صاور للطباعة والنشر عام ١٩٦٦ ص ٥٧ .
١ - م٠ نفسه ص ٥٩ .

هى أشواقهم وأحلامهم أفراحهم وأتراحهم ، لعناتهم وبركاتهم لا تزال منبثة فى الهواء [١] الذى نتنفسه. فالعالم وإن تعددت كائناته وتنوعت أشكاله ووظائفها ، فهى منه بمثابة الأعضاء فى الجسد الواحد ، والعوالم التى فى داخل الإنسان ، وهذه الكائنات والعوالم التى حوله كلها عالم واحد تتلاشى منه البدايات والنهايات وتزول المسافات ، لقد هوس بفكرة وحدة الوجود هوساً كبيراً واتخذ فى معالجتها طابعاً فلسفياً متأثراً بالفلسفة الأفلاطونية فى قوله " ذلك النظام هو العقل الأزلى الكلى الكامل الشامل الذى فيه عقلى وعقل كل إنسان ، وغريزة كل نبتة وحشرة وحيوان ، وطبيعة الذرات التى تتألف منها سائر الأجساد " [٢] ثم يكمل موضحاً هذه العلاقة الأزلية بينه وبين هذا العالم بقوله " وعقلى لا يختلف بشئ عن العقل الأزلى ، الكلى الكامل الشامل العامل بغير انقطاع إلا كما تختلف البذرة عن الشجرة التى هى منها ، أو كما يختلف الطفل عن والديه والجدول فى البحر"[٣] وهذه الكائنات والجمادات فى الكون وحدة واحدة متصلة فيما بينها ، تقوم على التناسق والتآلف والتجاور ، لأنها منبثقة من العقل الأزلي " فالبحر وما توحيه أبعاده وأعماقه . . واليابسة وما فيها وما عليها والفضاء الأوسع بشموسه وأقماره ومجراته . . والولادة والموت وما بينهما من نمو وانحلال ، وفرح وترح ، وشوق وقلق ، كل هذه ليست سوى الظروف المواتية ضمن الزمان والمكان التى أعدها العقل الأكبر للعقل الأصغر ، كما تساعده على التفتح والتبدد والتفهم إلى أن يصبح كلياً وشاملاً وكاملاً وأزلياً وأبدياً كالعقل الذى منه انبثق " [١]

---

١ - م٠ نفسه ص ٦٠ .
٢ - م٠ نفسه ص ١٥.
٣ - م٠ نفس الصفحة .
١ - م٠ نفسه ص ١٦ .

والهدف الأسمى من حياة الإنسان أن يتفهم حقيقة وجوده فى هذا النظام الكونى الذى هو جزء منه ، أوليس يرى الإنسان أنه إذا شرب قطرة من ماء ، فكأنه شرب البحار كلها ؟ لأن كل قطرة فى كل بحر صلة بالقطرة التى يشربها ، وإذا أكل ثمرة فكأنه أدخل إلى جوفه الحياة بأسرها ، لأن كل ما فى الحياة قد تعاون فى تكوين تلك الثمرة ، وإذا ما أبصر مذنباً هائماً فى الفضاء ، فكأنما أبصر كل ما فى الفضاء ، لأن الفضاء هو كف الله القابضة على كل شيء . . وإذا ما صافح إنساناً فكأنه صافح كل إنسان . . لأن كل إنسان يحمل فى كل نفسه كل الناس وهكذا فكيفما انقلب الإنسان وجد أنه فى كل شيء ، وأن كل شيء فيه (١) . فالإنسان جزء من هذا الملكوت الأكبر ، ينساب فيه عبر آفاق الزمان والمكان ، ليحطم الحواجز والموانع ، ليخلصها من عالم المحسوس إلى ملكوت الروح ، وهنا يحدث له ما يحدث للصوفى من تجليات ومكاشفات ، فيرى ما لا يراه غيره ، ويشعر بما لا يشعر به غيره " وما هى إلا دقات حتى يغيب عنى كل شيء ، وأراني كالماشى فى نفق مظلم تحت الأرض ، ففى داخلى أصوات لا تنفك تسألنى من أين كل ذلك ؟ وإلى أين ؟ ولماذا ؟ من الله وإلى الله ، وبغتة ألمح بصيصاً من النور ، إنه ضئيل . . . ولكنى أشعر بانفراج فى صدرى . .. ويزداد الانفراج فيبدو شبه غبطة ، وأحس كأن أبواباً كثيرة مغلقة فى داخلى أخذت تنفتح ... قد امتزجت الأشياء بى ، وامتزجت بها ، فلا هى غريبة عنى ولا أنا عنها غريب ، بل إنى وإياها جسد واحد ، وروح واحد (٢) .

فهذه رحلة صوفية تشبه ما أطلق عليه الصوفيون (الاتحاد والحلول) ليعيش الصوفي فى نشوة وسكر وذهول . لحظات خاطفة ساحرة مسكرة ، يشعر فيها بغبطة أى

١ - راجع م٠ نفسه ص ٦٠ ، ٦١ .
٢ - م٠ نفسه ص ٤٩ ، ٥٠ .

غبطة ، تجعله ينظر إلى الإنسان نظرة محبة وتفاؤل وطمأنينة ، ليذوب هذا القلب فى العالم ويذوب العالم فيه ، (١)

بالمحبة وحدها يعيش الإنسان ويصبح فى وسعه أن يتفهم ما تقوله الأشجار والأنهار والبحار والصخور ، والتراب والهوام والإنسان ،وبغير المحبة لا يفهم حرفاً واحداً من لغة الأرض وأبنائها (٢) ومن ثمرات حبه للأرض وما عليها أنه يخرج بكنوز نفيسة ، من هذه الكنوز " الحس بالجمال ، والحس بالنظام ، والحس بديمومة الحياة الخلاقة ، والحس بأنه من تلك الحياة فى الصميم " (٣) والإنسان لا يتذوق الجمال والمحبة والحنان إلا فى الطبيعة ولا يدرك معنى الخلود إلا فى خلود الحياة ، ويطمح دائماً إلى فهم الحياة مجردة بالاتحاد بها ، ويحلم بأن يصبح روحاً صافياً كما هى الحياة فى داخله روح صاف لا يحصره زمان ولا يحده مكان . (٤)

إن هذه النشوة الصوفية الداعية إلى الانفكاك من القيود وإلى فهم الحياة خلال نظرته الروحية طريق إلى الخلود ، لأنه يرى حياته على الأرض ليست سوى غفلة يكتنفها ضباب الموت " وأن أجمل ما فيها حلم يخترق ضباب الموت إلي يقظة الحياة المثلى ويرفع الإنسان إلى ما فوق الخير والشر ، وأن الذين يظفرون بمثل هذا الحلم طيلة غفلتهم الأرضية ، يستيقظون على غبطة المعرفة الكاملة . . أما الذين يتذوقون حلاوة ذلك الحلم ثم يعودون فيفسدونها بمرارة أحلام أخرى فأولئك يظلون معذبين ريثما يتخلصون من المرارة ، والمرارة هذه تتولد من كل شهوة أو مطمع ، وكل رغبة لها بداية ونهاية " (١) .

---

١ - راجع م٠ نفسه ص ٧٦ .
٢ - راجع م٠ نفسه ص ٢١٩ .
٣ - م٠ نفسه نفس الصفحة .
٤- راجع م٠ نفسه ص ١٣٨ .
١ - م٠ نفسه ص ١٠٧ .

وهذا الإنسان إذن لا يغشاه الموت ، فمن مات ودفن كأنه لم يمت ، ولم يدفن "فكيف يموت ويدفن من تجلت فيه الحياة ، ولو لمحة من الزمن إلا إذا ماتت الحياة ، ودفن الزمن " (١) .

وبعد عرضنا لرؤية الصوفية للحياة والكون ، يمكن القول بأنه قد تجلت لنا فى رؤيته " تلك النظرة العالمية التى لا يصدر فيها عن فكر طائفى ، أو قومى بل هو يفكر على مستوى إنسانى عام ، ويكتب لكل الناس ، دون تفرقة بين أبناء جنس و جنس ، أو بين أبناء دين ودين ، وبهذه النظرة الكونية الصوفية ، يقف متميزاً بين كتاب التراجم الذاتية الحديثة ، وهو لا يتميز بهذه الميزة وحدها ، بل هو وحده من بينهم جميعاً من يظهر إيمانه العميق بالخوارق والإلهام والرؤى والمصادفات والأحلام ، وهو إيمان ينبع من تلك النظرة الكونية الروحية ذاتها " (٢) .

٤-٣ مما تنفرد به سيرة فدوى طوفان (رحلة صعبة " رحلة جبلية " – الرحلة الأصعب) فى مقصديتها تفعيل دور الأديب فى الحياة ، ونظراً لظروف فدوى طوفان كفلسطينية ، يرزح وطنها تحت نير الاستعمار قامت برسالتها كشاعرة ، لتجعل من شعرها قنابل وقذائف تدك معاقل العدو ، وتثير الحماس ، وتلهب المشاعر ، خاصاً كما تقول " يظل الشعر هو الرد الأدبى الأسرع على الأحداث والتحديات ، ذلك أنه بطبيعته لغة الانفعال والاشتعال العاطفى "(٣) .

فما أن جاءت النكسة حتى كثفت جهودها وندواتها الشعرية مع كبار الشعراء فى الأرض المحتلة محمود درويش سميح القاسم ، وفى أقل من أربعة أشهر من النكسة

---

١ - م٠ نفسه ص ١٥٨ .
٢ - الترجمة الذاتية فى الادب العربى الحديث د . يحيى عبد الدايم ص ٣١٨ .
٣ - الرحلة الأصعب (سيرة ذاتية) فدوى طوفان ط دار الشروق عمان عام ١٩٩٣ ص ٣٧ .

obeikandl.com

١٩٦٧/٦/٥ ، نجدها تنشر خمس قصائد فى جريدة الاتحاد يوم ١٩٦٧/٩/٢٢ م (مدينتى الحزينة – الطاعون – إلى صديق غريب – الطوفان والشجرة – حى أبدا) وتؤكد القيمة المعنوية للشعر وخاصة فى هذه الظروف التى يمر بها وطنها بقولها " حقاً إن للشعر قوته المعنوية ولا جدال فى قوة طائرة الميراج والدبابة غير أن . . الشعر يمتلك قوة معنوية ومحرضة تظل قائمة ، إنها تزعزع المحتل لأنه يدرك مدى تأثيرها فى الجماهير "(١) ومما يدلل على تأثير الشعر فى النفوس ، ورفع الروح المعنوية ، وإثارة مشاعرهم وحماسهم ما راه أحد العمال إذ قال له أخ فى الجيش الأردنى أنه عندما استمعوا لقصيدة (لن أبكى) وقد بلغ تأثر الجنود بالقصيدة أنهم بعد انتهاء البرنامج المذاع تناولوا واحداً واحداً بالتناوب القرآن الكريم مقسمين على أن يستمروا فى القتال حتى آخر قطرة من دمائهم ، وكانوا فى حالة تأثير عميق .(٢)

ومن القصائد التى أثارت مضجع العدو وأقلقته قصيدتها (آهات أمام شباك التصاريح) والتى تقول فيها :

ألف " هند " تحت جلدى
جوع حقدى
فاغر فاه ، سوى أكبادهم لا
يشبع الجوع الذى استوطن جلدى
آه يا حقدى الرهيب

وانهالت الصحف الإسرائيلية بالتنديد وتحت عناوين مثيرة منها (شاعرة فى القرن العشرين من أكلة لحوم البشر) وأخذت عبارات التهكم تنتشر في المجتمع

١ - م٠ نفسه ص ٩٢ .
٢ - راجع م٠ نفسه نفس الصفحة .

الإسرائيلي حتى من الشباب عندما كانوا يتندرون فى المطاعم ، ويطلبون قائمة (فدوى طوفان) أى (صحن كبد) [١] ، وكان الرد عليهم بأن ما صدر منها من غيظ وتعطش بالانتقام هو بعض ما عندهم ، فقد سبق أن قال شاعرهم الصهيونى (مناحيم بيالك) فى قصيدة عنوانها (أناشيد باركوخيا) حيث قال على لسان باركوخيا المحاصر فى القاعدة اليونانية :

هذا ليس بشيء سوى أنكم مرات عديدة أوجعتمونا
وحولتمونا إلى حيوانات مفترسة
وبغضب وحشى نشرب دمائكم بدون رحمة [٢]

وجاءت دور الكلمة الناقدة على لسان سميح القاسم فى جريدة الإتحاد (١٩٧٤/٨/١٦) تحت عنوان (التفوق الكاينبالى) حيث قال : حتى اليوم سمعنا عن تفوق عسكرى ، تفوق زراعى ، تفوق استيطانى ، اليوم تستطيع أن نضيف تفوقاً آخر هو التفوق الكاينبالى (كينبال كلمة إفرنجية تعنى أكلة لحوم البشر) فهناك مجموعة من الطلبة الاسرائيليين تراهنوا على أكل دماغ إنسان ميت ففاز أحدهم فى الرهان ، فكيف يلومون فدوى طوقان بما كتبته شعراً – من حنقها تريد أن تأكل كبد كل هؤلاء . .الخ [٣]

إن رسالتها - كأديبة- اقتضت عليها أن تتعامل مع كل من يناشد قضيتها ، دون النظر إلى جنسية هذا الفرد أو ديانته ، لذا التقت بكثير من الشخصيات سواء السياسية أو غير السياسية ، طالما أن هذه الشخصيات وافقتها فى مناداتها بالعدل وإقامة دولة فلسطينية ، فلم تجد حرجا من لقاء موشى دايان وكانت لها علاقة بزوجته وابنته ، فدايان

١ - راجع م٠ نفسه من ص ٦٩ : ٧٤ .
٢ - م٠ نفسه ص ٧٥ .
٣ - راجع م٠ نفسه ص ٧٥ : ٧٦ .

لن يلومها فى موقفها وقال ذلك صراحة " لست ألومك بل أنا أقدرك ، وأتمنى لو أن لدينا شعراء وطنيين مثلك " (١) ، ومن الشخصيات اليهودية التى تراسلت معها راحيل فرحى وكانت فدوى تدعوها لندواتها الشعرية ، وكانت راحيل تدعوها إلى التطرق إلى حق الفلسطينين فى تقرير المصير (٢) ، وأشادت (فدوى) بالحامية الإسرائيلية (فيليتسيا لانغر) السيدة التى نذرت نفسها للدفاع عن المناضلين الفلسطينين ، ومقاومتهم الاحتلال وكشف مظالمه أمام الرأى العالمى (٣) ، وأشادت – أيضاً – بعازف الكمان (يهودى منوهن) المدافع عن الحق الفلسطينى ، وبالمغنية الشابة (سى هجان) لأنها ظلت تغنى لقضية السلام والنضال ضد الحرب (٤) ، وكانت تتزاور مع الأديب اليهودى (مردخاى أبى شاؤول) لأنه كان من المنادين بحرية الإنسان من أجل مستقبل أفضل ، ورفض استغلال شعب لشعب آخر (٥) ، واستضافت الفيلسوف الأمريكى اليهودى (هربرت ماركوز) عندما زار الأراضى المحتله فى يناير عام ١٩٧٢ لأنه رجل موضوعى ونادى بالسلام العادل حين قال " إننى كيهودى كابد ظلم النازية للشعب اليهودى ، لا يسعدنى أن أرى إسرائيل وقد تحولت إلى دولة ذات روح عسكرية تكيف حضارتها المادية والفكرية لتتلائم مع المتطلبات الحربية " (٦) .

٤-٤ رغم أن الهدف الذى قصده خليل حسن خليل فى الوسية أن يعرض لجهاده ونضاله العظيم من أجل إثبات ذاته وتفوقه ونبوغه من عسكرى (صف ضابط) متطوع فى الجيش إلى رجل يحصل على الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى ، بقدر ما أراد لسيرته

---

١ - م٠ نفسه ص ٤٢ .
٢ - راجع م٠ نفسه ص ١٠٥ .
٣ - م٠ نفسه ص ١٠٩ .
٤ - راجع م٠ نفسه ص ١٠٤ .
٥ - راجع م٠ نفسه ص ١١٧ .
٦ - م٠ نفسه ص ١٣٧ .

أن تعبر عن عظمة نضاله فى الحياة ، إلا أن الهدف الأسمى من هذه السيرة تعرية مجتمع الظلم والقهر والمحسوبيات والطبقات الاجتماعية المتسلطة ، وقد كان خليل يدرك ذلك ، فاتخذ عنوان سيرته (الوسية) مجتمع الظلم الذى يقوم على القهر والاستعباد ، وجده فى وسية الخواجة ، ووجد هذا النظام مستمراً – مع اختلاف الصورة – فى الجيش المصرى ، ثم وجده فى مجتمع الجامعة ، ولقد اقتنى الخواجة وسيته من سلب أراضى الفلاحين فى فترة تآمرت فيها الحكومة مع الملك ضد الشعب ، انتهز هذه الفرصة الخواجة التركى الذى جاء إلى مصر جرسوناً فى خمارة سرعان ما امتلكها ، وأخذ يقرض الناس من أمواله برهن أطيانهم ، وعندما ثقلت الديون ، حجز على الأرض ، واشتراها بأبخس الأثمان ، وكانت له هذه الوسية (مساحتها خمسمائة فدان) واستن نظاماً لوسيته ، ليصبح الجميع خدماً له (الخولى – الباشكاتب – كاتب الأنفار – الكلاف – الخفير – الفلاحون العاملون..الخ) ، الخواجة يسرق الفلاحين عرقهم وكدهم فى الحقول ، ومحسوبية الخواجة تسرق من الخواجة ، و بعضهم (كالباشكاتب) يسرق من الفلاحين (ببخس الميزان) . . وكلهم مضطرون لهذا النظام ، لأن مصلحتهم العمل فى وسية الخواجة .

الفلاح يزرع – هو وزوجته – فى أرض الخواجة مقابل أن يترك له الخواجة فداناً أو اثنين يزرع فيهما برسيماً لحيواناته ، ويزرع القمح والأذرة ليأكلها ، ولكن جهده آخر العام يضيعه الباشكاتب بالاتفاق مع الخواجة ، وذلك ببخس الميزان أولاً ، ثم بخصم قنطارين من القطن أو أردبين من القمح والأذرة . . ليصبح الفلاح مديوناً لادائنا . . أما محسوبية الخواجة (الخولى – الكاتب – الخفير . . إلخ) فهى – أيضاً – تسرق من

الخواجة ، وكل واحد يبرر لحل (بكسر الحاء) ما يفعله . . فالكاتب (حسين) لم يكفه سرقة الفلاحين وبخس الميزان ، بل يسرق الخواجة أيضاً بالاتفاق مع بعض العمال يذهبون إلى المخازن ليلاً ، ويسرقون القمح والأذرة (طبعاً الفائض من سرقة الميزان) ويسرقون من الأغنام والمعز . . إلخ ، ولا يعطى العمال الذين يقومون بالسرقة أجرهم ، اللهم إلا تسجيل يومياتهم اليوم التالى ليقبضوا أجورهم كأنفار رغم عدم حضورهم اليوم . . وقد وضع الكاتب تسعيرة لإهانة الخواجة له ، كالآتى " كلمة يا ابن الكلب هذه يدفع فيها الخواجة مائة جنيه ، والصفعة على وجهي يدفع فيها مائتى جنيه ، والشلوت أى الركل بالقدم يدفع فيها ثلاثمائة جنيه " (١) . واستطاع فى عامين " أن يشترى عشرة أفدنة ، وعم سليم الخولى يسكت على الظلم ، بل ويقبل أن يقيد للمقاول عشرين نفراً زيادة كل يوم مقابل أن يأتى له بالغذاء الفاخر (الأذرة البيضاء – الفسيخ – البطيخ) ويطالب خليل بأن يزور فى الحسابات ، ويبرر لرأيه أنت عبد المأمور – والمأمور فى هذه القرية الخواجة"(٢) ويكون ولاؤه للخواجة إيماناً بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة فيقول لخليل (من أكل عيش اليهودى حارب بسيفه) ومحمد خطاب الخفير يسرق كل ليلة من القمح والأذرة والعلف والماشية ، ويبرر لموقفه بظلم الخواجة للفلاحين ، وأنه يريد يعيش حياة ميسرة - - والذى يئن من الظلم فى هذه القطاعات هو الفلاح الأجير ، فمحسوبية الخواجة يعوضون ظلمهم بالسرقة من مال الخواجة بحجة الانتقام من الخواجة لظلمه . . هذا هو مجتمع الوسية الذى هو كما يقول خليل حسن خليل " شأنه فى ذلك شأن مجتمع الغابة لا ينطبق قانون الأقوى فيه على الشخص أو على الفئة التى تتبوأ اللقمة فحسب ، فبين القمة والقاع فئات لها أيضاً أنياب ومخالب ، يمكن أن تنشبها فى الفريسة ، وهى إن لم

١ - الوسية د . خليل حسن خليل مطبعة مدبولى ط ٢ عام ١٩٩٦ ص ١٩٨ .
٢ - م٠ نفسه ص ١٩١ .

تستطع ذلك جهاراً فى وضح النهار، فهى بعد أن يشبع ملك الغابة ويأوون إلى مضاجعهم تتسلل فى جنح الظلام ، وتفرض نفسها على الحياة فى مجتمع الغابة " (١) .

وعندما التحق بالجيش وجد صورة أخرى من صور مجتمع الوسية ، حيث الطبقات والفوارق الاجتماعية الضابط من أبناء الموسرين أما الجندى فمن أبناء المعدمين لو وجد أبوه دفع فديته من الخدمة العسكرية (عشرون جنيهاً) ماجاء إلى أداء الخدمة وجاء نظام المراسلة ليقر مبدأ تسخير وخدمة الجنود للضباط فكما يقول " أصل الكلمة يرجع أن العسكرى المراسلة يحمل رسائل الضابط من مكتبه إلى المكاتب الأخرى، ويعاونه فى بعض شئونه . . . ولكن هذا النظام الذى ورثه الجيش المصرى من الجيش الإنجليزى قد أصبح مشوهاً جارحاً لكرامة الوطن والمواطنين ، فعسكرى المراسلة يعمل عمل الخدم فى البيوت " (٢) ولقد اضطر إلى هذا الموقف وذاق مرارة الظلم عندما عين رئيساً لمكتب القائد وأمر بأن يدخل على مكتب القائد ويلمع حذاءه ، فإذا به كما يقول " دفعت بالعسكرى الذى يمسك بالفوطة ، وقلت له : أدخل امسح جزمة الباشا " (٣) . وعندما ينقل إلى اللواء الأساسى يرى مجتمع الوسية فى أكمل صورة كما يقول " وما الوسية التى يملكها الخواجة اليونانى إلا قطاع من الوسية الكبرى التى تحكمها هذه الطبقة التى أحرس كبير حراسها"(٤) ، كل إمكانات الجيش يأكل أطيابها القادة ، يسرقون أفضل أنواع المأكل والملبس إلى بيوتهم " لوراى الجيش وعرباته المختلفة ، تأتى إلى منزل الباشا محملة ، ويفرغ العساكر والعاملون فى منزل الباشا حمولتها فإذا العجول والخراف المذبوحة ، وإذا بالزكايب والأجولة يتساقط منها العدس والفول والأرز، وإذا بصفائح تنز سمناً وزيتاً

١ - راجع م٠ نفسه ص ١٨٦ .
٢ - م٠ نفسه ص ٢٨٧ : ٢٨٨ .
٣ - م٠ نفسه ص ٣٣٥.
٤ - م٠ نفسه ص ٣٦٣ .

وعسلاً ، وما تلبث هذه أن تتبعها لوارى أخرى محملة بالملابس والملايات والبطاطين والأغطية [١] ، ومثلما رأى في وسية الخواجة تباين مستويات الظلم والسرقة ، فرأى محسوبية الخواجة تسرق وتستفيد ، وإن كانت الإفادة الأكبر للخواجة ، والظلم كل الظلم يقع على الفلاح ، وهنا فى وسية الجيش الباشاوات فى مقام الخواجة ، أما المستفيدون المحدودى المستوى ، مثل الصول فهو مميز فى أكله ، يأخذ من اللحوم أطايبها ومن الملبس والمشرب أفضلها ، ناهيك عن إفادة الضباط الصغار ، الذين يقومون ببيع المهمات الجديدة فى أسواق خاصة ويسجلونها (كهنة) ويسرقون – أيضا من السمن والسكر واللحوم فى بيوتهن ولكن بمقادير صغيرة عن البشوات الكبار . . الخ [٢] .

كل ذلك دفعه إلى التفكير فى تقديم استقالته ، ولكن ظروفه المادية فرضت عليه البقاء فى خدمته ، ولكن الذى كان يؤلمه أكثر أنه وجد هذه المؤسسة العسكرية الحارسة للوسية الكبرى قد عملت حساباتها ألا يلتحق بها إلا من يتفق ومستواها المادى ، حتى تظل على مكانتها ، فعندما فكر – بعد حصوله على التوجيهية بتفوق – الالتحاق بالكلية الحربية ، كان الرد عليه " الأسماء التى ستقبل فى الكلية معروفة ، ومحضرة من قبل ، أولاً الباشوات وأقاربهم ، ومحاسيبهم " [٣] .

وعندما التحق بالجامعة ، وقدم طلباً لإعفائه من الرسوم لتفوقه (٨٣٪) فإذا العميد يطلب منه شهادة فقر وبذلك أصبحت الكلية " متسقة تماماً مع دورها فى مجتمع الوسية ، لقد أخلصت لمهنتها كممثلة للوسية العلمية ، أجبرت الطلاب على شهر الفقر فى وثيقة رسمية ، تماماً كما تشهر ملكية المالكين فى الشهر العقارى – كأنها شاءت أن تخلع

---

١ - م٠ نفسه ص ٣٥٧

٢ - راجع م٠ نفسه من ص ٣٧١ : ٣٧٣ .

٣ - م٠ نفسه ص ٣٩١ .

على الفقر لمسة علمية ، فجعلت شهرة وإعلانه على مراحل ثلاثة ، الأولى لدى شيخ الحارة والثانية عند مأمور القسم ، والثالثة أمام مجلس الكلية " (١)

ضياع الفرد وامتهانه فى مجتمع الفقر والحرمان وافتقاد العدالة نتيجة لذلك ظهرت طبقات المجتمع التى أدت إلى تفسخه ، فلو كانت هناك عدالة ما وجد هذا التفسخ الاجتماعى وشعور أفراد الطبقة الدنيا بالامتهان والقهر ، وما وسم الفقر فى شهادة رسمية ليكون مسبة لصاحبه ويظل شبح الفقر مطارداً له ، حتى بعد حصوله على ليسانس الحقوق بتقدير جيد جداً ، يرفض مجتمع الوسية تعيينه فى القضاء أو فى مجلس الدولة ، لا لذنب اقترفه ولكن لأنه يعيش فى مجتمع الوسية الذى تنص دساتيره على احتقار الفقراء وعدم تمكينهم من حياة طبيعية ، فلا يسمحوا لهم بالالتحاق بالوظائف الحساسة فى الدولة ، حتى يعيش الفقراء مهمشين مادياً ومعنوياً فى المجتمع ، وفى النهاية يلمح بالثورة تلميحاً ولكن من أين له هذا ؟! يقول " إن مجتمع الوسية لا يكفى فى حمايته لنفسه بالقوى الظاهرة ، ولكن لديه قوة خفية أكثر شراسة ، وأشد ضراوة ، إذن لابد من قوة أكبر من هذه القوى جميعاً ، إذا كان يراد اجتثاث دولة الوسية من أساسها وإقامة دولة أفضل ، ولكن أين هذه القوى الأكبر" (٢)

إن سيرة خليل حسن خليل تكسب قيمتها الفنية فى إثارتها لقضية إنسانية كبرى ألا وهى قضية افتقاد العدالة واستفحال الظلم ، وشعور الفقراء بالضياع والقهر ، فى مجتمع أبت دساتيره إلا وأن تقضى على الفقراء قضاء مبرماً فلا يملكون ولا يلتحقون بوظائف (لها الثقل الاجتماعى) وبذلك كتب عليهم الضياع . أليس هذا ما نجده فى مجتمعنا المصرى الآن ؟!

---

١ - م٠ نفسه ص ٤٠٦ .
٢ - م٠ نفسه ص ٤٨٤ .

٤-٥ لا تقتصر غائية ثلاثية حنامينا تصوير حياة البؤس والضياع التى عاشها صاحبها بدون بيت يأويه متنقلا من اللاذقية إلى السويدية إلى قرة أغاش إلى الأكبر إلى إسكندرونة ثم إلى اللاذقية . . فقر وحرمان وتشتت ، حتى عندما امتلكوا بيتاً متواضعاً فى المستنقع ، وسقفوه بالقرميد الأحمر ، جاءت الأوامر بالرحيل ، بعد أن آل هذا اللواء (إسكندرونة) للسلطات التركية ، وما إن وصلوا إلى اللاذقية ولم يلبثوا فيها شهوراً معدودة فى مسكن متواضع ، حتى أعدوا للرحيل إلى حقول الزيتون فى مزرعة (ح) بعدما ضاقت سبل الحياة أمامهم للعمل فى اللاذقية ، لم يقصد حنا مينا فى عمله الروائى تصوير طفولته البائسة ، بقدر ما قصد من إدانة الظلم وضياع العدالة فى الحياة ، فلو كانت هناك عدالة ما امتلك قلة من الناس كل شيء ، وما فقد كثير من الناس كل شيء ، ليعيشوا أجراء عندهم وخداماً لهم يتحكمون فى مصائرهم كما يشاءون . . الخ ،

وقد اتخذت رواية حنامينا منحى فلسفياً ، تجلى ذلك فى استبطانه لنفسه وفى حواراته سواء مع أمه أو عمه أو عبد الله (أبو رئيفة التى أحبها فى حقول الزيتون) هذه الأسئلة تتمحور فى هذه الجملة : لماذا خلقنا الله فقراء ؟ وخلق غيرنا أغنياء؟! سؤال صعب إجابته غير يسيرة ، يقول فى استبطانه لذاته " لشد ما تساءلت عن سبب فقرنا ولشد ما حاولت الوالدة أن تقنعنى أن ذلك من الله ، غير أننا كنا نحب الله مثل غيرنا ، ولم نكن نؤذى أحداً مثل السيد وزوجته ، والوالدة تصلى كل ليلة ، فلماذا يبقينا الله فقراء ؟ وأفقر من الذين نعرفهم " [١] إنه سؤال ميتافيزيقي يصعب الإجابة عنه ، بالمنطق والعقل ولكن قوة الإيمان (التى كانت تتحلى بها الأم) تملى علينا إجابة واحدة قالتها الأم (هى

١- المستنقع حنا مينا ص ٤٣ .

إرادة الله يابنى) ، وفى حواره مع عمه بعد رجوعهما إلى اللاذقية يعترض هذا (الصبى) على كلام عمه الذى فيه إذعان للإرادة الإلهية ، يقول العم وهو يرد عليه :

- تشردتم كثيراً يا أحبابى . . أبوكم رحل بكم لا أدرى إلى أين .
- قلت له – والدنا لم يستقر بنا فى مكان – كان كثير الإفلاس ، كثير التنقل يا عمى
- هذا ما أراده الله .
- الله لا يريد التشرد لعباده
- عندئذ قال وهو يمسح دموعه :
- لا تعترض على حكمة الله .
- أية حكمة هذه ؟ – الله لا علاقة لهل بها [١]

إنها حكمة البشر (المبرءون من الحكمة) فضاعت العدالة ، وأصبحت عائلة (ح) تمتلك آلاف الأفدنة ، وآلاف البشر لا يملكون قوت يومهم ، أكثر من ذلك لم يعف محسوبية مزرعة (ح) الفلاحين من الظلم ، فالمطعون كان يسرق الفلاحين فى الميزان ، ومن يعترض يلفق له التهم ، وعندما حافظت بدور على حيائها وشرفها فلم تتجاوب معه فى الكلام الذى يتجاوز حدود الحياء ، اتهمها بالسرقة ، وكان مصيرها السجن عشرة أيام (لولا أثبتت براءتها) ، والطرد لها ولأهلها [١] ، لقد شعر بمرارة الظلم منذ نعومة أظفاره ، فها هو فى المدرسة يشعر بالفارق بينه وبين زملائه ، ويحرم من صلاة الأحد ، ومن السير فى جنازة الأغنياء ، ومن الذهاب فى رحلة إلى أنطاكية لأنه لم يستطع دفع مصاريف الرحلة (أربعة قروش) ومن حوله يرى الأغنياء يتمتعون بثرواتهم ، ومع تقدمه فى الحياة أخذ وعيه فى النمو ، وثارت فى نفسه مشاعر الحنق والتمرد . فيقول " هكذا وعيت الأشياء

١ - القطاف حنا مينا ص ٣٩ .
١ - راجع م٠ السابق ص ١٧٣ وما بعدها

أدركت أن الحياة ظالمة ، وأن ثمة من يريد ويعمل ، لإزالة هذا الظلم ، ومنذ المدرسة قام فى ذهنى أننى واحد من أولئك الذين سيساعدون بشكل ما على إزالته . . ولأننى أساساً أتلمس العدالة ، وأنشدها فقد كانت تشوهات العيش تؤلمنى ، وكان الاستثمار والاستغلال والضرب والتعذيب والاحتلال الأجنبى ، وحكم الأغوات فى الريف ، وحكم الأسياد فى المدينة ، يولد فى نفسى رغبة فى المقاومة " (١) ، وأخذت نبرته تعلو عندما يعلل له غيره بأن الفقر من الله فيرد على أمه فى قولها أليست هذه إرادة الله – يرد عليها لا . . هذه إرادة استعباد (٢) .

ويستمر فى استبطانه لذاته مؤكداً هذه الفكرة التى توصل إليها ، فيضيق – ذرعاً– من عائلة (ح) لاستغلالهم ، لأنهم رمز الاحتكار والاستعباد لغيرهم يقول " مشيت، مشيت مشيت ، كان كرم الزيتون عن يمينى ، وفكرت أن أعد صفوف الأشجار ، ثم أعد كم شجرة فى كل صف ، وأضرب الناتج بعضه ببعض، وعندئذ كم يغدو الرقم ؟ إنه سيكون كبير إلى درجة لا تصدق ، وكمية الزيت التى يعطيها لا تصدق أيضاً ، وكل هذه الكمية ستحصل عليها عائلة واحدة ، دون تعب ، دون نفقة ، دون أى مجهود يذكر "(٣) .

ويعترض على كلام أمه فى حديثها عن بركة هذا الزيتون ، وتدعو بالبركة لأصحابه ، مشيراً إلى افتقاد العدالة (إنهم أغنياء بشكل لا يصدق ، ونحن فقراء بشكل لا يصدق أيضاً) (١) . لقد ضاق كثيراً من لهجة الإذعان والخضوع للسادة ، والاحترام اللامتناهى الذى يذهب بكرامة صاحبه ، ضاق من أمه ، وضاق من رئيفة لأنها لا " تستشعر شيئاً من ظلم الحياة ، ومن وطأة الفقر ، ومن جور الملاكين والدرك ، إن هذه العبادة للأغنياء ، هذا

---

١ - م٠ نفسه ص ١٦١ .
٢ - م٠ نفسه ص ١٦٤ .
٣ - م٠ نفسه ص ١٦٦ .
١ - م٠ نفسه ص ١٦٧.

الاحترام ، هذه الانغلاقية العقلية أمام فظائعهم ، أرعبتنى ، وسأقضى عمرى كله وأنا أصطدم بمثلها (١) .

فالسيرة فى مجملها صرخة انسان ذاق مرارة الفقر ، فجاءت صرخته عالية مدوية منادية فى قرارتها بالعدالة ، لأنه يرى أن الفقر هو الوجه الآخر للموت يتحدث عن حياة المستنقع فى الفقر والضياع والهوان قائلاً " أقلب نظرى فى الحى المتناثرة أكواخه العميقة بين أدغال البردى ، وسط مستنقع تنق الضفادع فيه ، وتسرع الأفاعى فى جوانبه إن الفقر هنا هو الفقر ، هو البلاء الأسود ، هو الوجه الآخر للموت ، وأن الحياة على هذا النحو بغيضة لا تحتمل " (٢) .

– ٥ –

إن قيمة السيرة كعمل أدبى تزداد ثراء وجمالاً بما تتضمنه من قيم إنسانية ، وبما تثيرة من قضايا إنسانية ، هذا ما وجدناه فى السير التى عرضنا لها كالأيام وسبعون والرحلة الأصعب والوسية وثلاثية حنا مينا ، ولكن عندما تتضاءل مقصدية الكاتب ، ولا تثير السيرة لقضايا إنسانية ، فهذا يقلل من قيمتها الفنية ، نجد هذا الملمح فى السير التى قصد أصحابها سرد أحداث حياتهم دون أن يحملوها بالقيم الإنسانية وبالقضايا الاجتماعية ، التى عاناها أصحابها ، ونضرب مثلا هنا بسيرة (على الجسر) لبنت الشاطيء والتى تعرض لنشأتها فى قرية شبرا بخوم بمحافظة المنوفية ، وحفظها القرآن الكريم فى الكتاب ، وطريقها العلمى رغم معارضة الأهل لهذا الطريق ، حتى التقت بأستاذها الشيخ أمين الخولى ، وكان الزواج منها ، لا نرى فى هذه السيرة إثارة قضية من القضايا الإنسانية ، إنما هو عرض لحياتها العلمية ، ولهفتها للقاء أستاذها ، حتى لقيته

١ - م٠ نفسه ص ٢٤٥ .
٢ - المستنقع . حنا مينا ص ٣٥٤ .

وبعدها تنقطع الأحداث ، لتحدثنا على فراقه على الجسر حتى وسدوه قبره فعلى الجسر بدأت حياتها ، وعلى الجسر انتهت حياتها (مع زوجها وأستاذها) لتقول فى أسلوب شاعرى جميل (أترنح على الجسر ضائعة الحيلة مبعثرة الخواطر ممزقة الرؤى ، ويختلط فى سمعى صدى النعى المصمى بنجوى الطيف الماثل ، وتمتزج فى صدرى ريح العدم [١] وعلى عينى ، اقتحم ناس غرباء مخدعه ليجهزوا جسده للرحلة الأخيرة ، وعلى عينى حملوه من دارنا إلى غير عودة [٢] . . وتؤكد أن لقاءها به كان مكتوباً فى علم القدر ، لأنها فتاة من أعماق الريف تتجاوز كل المصاعب حتى تصل إلى كلية الآداب ، لمشيئة كان قد كتبها القدر ، هى أن تلاقى شيخها (أمين الخولى) وتتزوج به ، وقد كان هناك هاتف بداخلها يناديها لرؤيته ، ولذا ظلت فترة طويلة تحلم برؤيته قبل أن تلقاه ، تقول " ماكان يمكن أن أحيد عن الطريق إليه وقد عرفته فى عالم المثل ومجالى الرؤى وفلك الأرواح ، من قبل أن أبدأ رحلة الحياة " [٣] .

١ - على الجسر اسطورة الزمان د . بنت الشاطئ ط دار الهلال د . ت ص ٧ .
٢ - م٠ نفسه ص ١١٥.
٣ - م٠ نفسه ص ١١٢ .

obeikandl.com